الحبُّ ليس الشهوة: أعيدوا النظر بمعنى زواجكم

في خضمّ التجارب والمحن التي تواجهها مؤسَّسة الزواج، يتساءل كثيرون عن معنى الزواج في مجتمعنا الحالي وعن كيفيّة وجوب تصرّف الزوجين لأجل ديمومة علاقتهما. وبهدف إلقاء الضوء على هذا الموضوع المهمّ، سنتطرّق إلى معنى الحبّ، وأهمّ ما قيل في الجنس والشهوة.

هناك مبدأ واحد أساسي، ألا وهو أنَّ الحبّ يعني حبّ الله. تخيَّلوا دائرة كبيرة تنبعث من وسطها أشعّة نحو خارجها. النور في الوسط هو الله وكلّ واحد منّا هو شعاع. كلّما إقتربت الأشعة إلى الوسط، كانت أقرب إلى بعضها البعض. لذا، كلَّما عشنا قريبين من الله، إقتربنا من الآخرين. وإن إبتعدنا عن الله، إبتعدنا عن بعضنا البعض. أمّا عندما يخرج كلُّ شعاع مبتعداً عن الوسط، فيصبح أضعف. ومن نقطة البداية هذه، ننطلق لنسأل: كيف يمكننا أنْ نحبَّ أنفسنا بدون أنْ نكون أنانيين؟ وكيف يمكننا أنْ نحبَّ الآخر بدون أن نخسر أنفسنا؟ ليأتينا الجواب: عبر حبّ نفسنا وقريبنا بالله، لأنَّ حبَّ الله هو ما يجعلنا نحبُّ نفسنا كما قريبنا، بما أنَّ حبَّ النفس بدون حبِّ الله هو أنانيّة، وحبِّ القريب بدون حبِّ الله ينطبق على مَنْ يعجبوننا فقط.

أمّا مَن يحبّ الله فهو لا يعرف معنى كلمة "كثيراً"، ومَنْ يتَّهمون الآخرين بأنَّهم يحبّون الله أو ديانتهم "كثيراً" فهم لا يحبّون الله على الإطلاق ولا يعرفون معنى الحبّ. من هنا، كانت معادلة الزواج الذي بدوره يستلزم وجود ثلاثة أطراف: الله والذكر والأنثى، لنصل إلى القول: "لا يمكن لأيِّ أحدٍ أنْ يحبَّ نفسه كما يجب، إلّا إنْ عرف المعنى الحقيقي خلف عيشه، فالحبُّ عديم النفع إن كان الإنسان لوحده. والحبّ يقتضي العلاقة؛ لذا إنْ تمَّ عيشه بعزلة، يصبح أنانيّة". كما وأنَّ الإنسان يستطيع أنْ يحبَّ أكثر ممّا يدرك. يمكن لأيِّ مؤمن أنْ يُكنَّ لله حبّاً أعمق من حبِّ أيِّ لاهوتيّ، كما ويمكن لآخر أنْ يفهمَ في قلبه طرق الربِّ وأساليبه أكثر من علماء النفس. وإستطراداً لحديثنا نؤكِّد قائلين أنَّه مَن لا يحبّون بعضهم البعض بعمق، يحتاجون إلى الكلمات؛ ومن يحبّون بعمقٍ ينمون في الصمت. أوَلا نقول إنّ الله يُكلِّمنا بالصمت؟؟

من ناحيةٍ ثانية وضمن تفسيرات أخرى للحبّ، نشير إلى أنَّ هذا الشعور قد ينبع من صداقة مبنيّة على الفائدة أو الرغبة. ففي هذا النوع من الحبِّ، يكون "العاشق" يحبّ نفسه أكثر من شريكه، لذا إنْ حال الشريك دون تحقيقه ما يرغب به، يتحوّل الحبّ إلى كراهية. فكما ينبع الحبّ من المعرفة، تنبع الكراهية من الرغبة في المعرفة "إنّ التعصّب هو ثمرة الجهل". وهنا ينطبق على هذا النوع القول: "لم يعرفوا الحبّ منذ البداية، لأنّ الحبّ لا يستعيد ما أعطاه، حتى في

الخيانة"، بما أنّ "الصلاح محبوب بطبيعته، والحبّ يجد أنّه من المستحيل ألّا يلاحق الصلاح". وفيما "ما يحبّه البعض ليس الشخص الآخر، بل إختبار كونهم مغرمين، نقول إنّه لا يمكن إستبدال الأوّل فيما العكس صحيح مع الثاني".

أنّ حبّ ما هو أدنى من البشريّ هو إنحطاط؛ وحبّ البشريّ لأجل البشريّ هو إعتدال؛ وحبّ البشريّ لأجل الله هو إثراء وحبّ الله لمجرّد حبّه هو القداسة. ومع القدّيس أغسطينوس، نذكر أنّ الخجل مرتبط بالعصيان، وهذا يعني أنّ طاعة أوامر الربِّ تمحو الخجل. من هنا، نصل إلى خلاصة القول إنّه كلّما ازدادت الطاعة لتعاليم المسيح، تراجعت حدّة الرغبة الملحّة أو الشهوة الجنسيَّة.

من جهة أخرى، إنَّ الرغبة المقرونة بالحبِّ أو ما يُعرف اليوم بتعبير "الجنس"، هي القاسم المشترك بيننا وبين حيوانات الأرض، فيما الحبّ هو القاسم المشترك بيننا وبين الله. معنى ذلك: "في الجنس، يعبد الذكر المرأة. أمّا في الحبّ، فيعبد الذكر والأنثى معاً الله". لذا، نجد أنّ العديد من الزيجات "مخيّب للآمال"، فالحبّ لا يحتاج إلى أسباب، فيما الجنس يلجأ إلى العلوم لتدافع عنه. الحبّ لا يسأل "لماذا؟" بل يعترف ببساطة "أحبّك"، لأنَّ الحبّ هو أسبابه الخاصّة. من ناحية أخرى، نشير أنّ نظريّة سيغموند فرويد – عالم النفس الأشهر – تفسّر الإنسان بتعابير الجنس، فيما المسيحيّة تفسّر الجنس بتعابير البشر. ولهذا السبب، يمتنع الناس المحترمون عن مناقشة مواضيع الجنس الفظّة لسبب نفساني، ألا وهو أنَّ الجنس بطبيعته ليس معلومات قابلة للنقل، بل هو مقدّس جداً ليتمّ تدنيسه.

نضيف قائلين، إنَّ الجنس يسعى خلف الجزء، فيما يسعى الحبّ خلف الكلّ. إنّ أكبر وهم لدى العشّاق هو إعتبارهم أنَّ حدّة إنجذابهم الجنسي هي الضمانة لدوام حبِّهم. لكن علينا أن نعرف أنّه في الحبّ البشري، كلّ رجل وامرأة يعد الآخر بالسعادة، إلّا أنَّ الله وحده هو مانح السعادة. ومن أسباب إنهيار الزيجات عدم إدراك الزوجين، وبعد تركهما المذبح، أنّ المشاعر البشريّة تتعب والحماسة تخفّ مع إنتهاء شهر العسل، لتبدأ العيوب بالظهور. ونضيف مؤكّدين أنّ على مَنْ يبدأون حياتهم المشتركة بفلسفة الجنس الوثنيّة، أن يواجهوا الحياة كمنحدر، إذ أنّه مع التقدّم بالسنّ هناك فقدان للطاقة الجسديّة المترافقة مع نظرة مريعة للموت، فيما تتضمَّن فلسفة الحبّ المسيحيّة تصاعداً، وتشير إلى بقاء الروح يافعة وإزدياد الحبّ حتّى مع تقدّم الجسم بالعمر. إنْ لم يتصاعد الجنس إلى السماء، سينزل إلى الجحيم إذ لا وجود لمقولة وهب الجسم بدون وهب الروح. وإلى ذلك، نزيد جملة: "يمكن للمرء أنْ يتوقَ للآخر بعد تذوّقه وحدة الجسد، لكن يستحيل التوق إلى الآخر بعد إتّحاد الروح"، بما أنّ سوء إستخدام الجنس خارج إطاره الطبيعي هو بمثابة خطأ.

أمّا عن الدخول في متاهات الخيانة والبحث عن شريك جديد بعد زوال "ألوهيّة" الشريك المعبود والشعور بالسأم، فنقول إنَّ هذا السعي "برهان لعدم وجود الحبّ على الإطلاق، بما أنّه يمكن إستبدال الجنس، فيما يستحيل إستبدال

الحبّ. والسبب الأساسي لطبع إختبار الجنس خارج إطار الزواج أثراً نفسانيّاً لدى المرء هو الشعور عن كثب بالفراغ بين الروح والجسد.
في النهاية، وفيما يكمن الحبّ في الإرادة بينما الجنس في الغدد، نُرِدّد مع يوربيدس الشاعر المسرحي التراجيدي الإغريقي: "ما من عاشقٍ لا يحبّ إلى الأبد". فالجنس في عصرنا هو رغبة بدون التزام. وبما أنّه لا يرتكز على قوانين، فهو رغبة بعيدة عن الله، لذا لا تفترق الشهوة الجنسيّة عن الإلحاد.

بقلم الأب سالم ساكا

الحياةُ الجنسيَّة هبةُ الله

يستمدُّ الإنسان كرامتَهُ من الله الخالِق الذي كَوَّنَهُ على صورته ومثاله (تكوين1/26). لذا فإنَّ الكرامةَ والاحترامَ الواجِبَين لكلِّ إنسان لا يَكِلُهُما أو يَنسُبُهما أحدٌ إلَيه، وليسا مِنَّةً من أيِّ مَرْجِعٍ آخر. كما أنَّ

كرامة الانسان لا تتوقّف على ما يملك أو على ما يفعل، فهي ليست للبيع والشراء. إنَّها عَطيّةٌ من الله نَفيسةٌ يَتَعَذَّرُ تقديرها "أُسَائِلُ نَفْسِي: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَهْتَمَّ بِهِ؟ أَوِ «ابْنُ الإِنْسَانِ» حَتَّى تَعْتَبِرَهُ؟ جَعَلْتَهُ أَدْنَى قَلِيلاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلَى حِينٍ، ثُمَّ كَلَّلْتَهُ بِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ وَأَعْطَيْتَهُ السُّلْطَةَ عَلَى كُلِّ مَا صَنَعَتْهُ يَدَاكَ. أَخْضَعْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ." (مزمور8/4-6). لقد دعانا الله إلى القداسة: "كونوا قدّيسين كما أنَّ الرَّبَّ قدّوس"، وفي إمكاننا أنْ نتقدَّس بواسطةِ ابنِه الوحيدِ يسوعَ المسيحِ وكنيستِه. وبقدر ما نُحِبُّ، نكون شبيهينَ بالله وَنُعطي ذَواتَنا لِلآخَرين.

لَمّا ضَعُفَ الإنسان وجَرحَ الكرامةَ بسقوطه في الخطيئة، استَمَرَّ اللهُ في حُبِّه وأَرسَلَ إليهِ ابنَهُ الوحيد مُخَلِّصاً وفادياً: "فقَدِ اشتُريتُم وأُدّيَ الثَمن. فَمَجِّدوا اللهَ إذاً بِأَجسادكم "(1كورنثس6/20). نعم! إنَّ الحياةَ البشريّة خُلِّصَت وَرُفِعَت بفعلَي التَّجَسُّد والفداء، فانتَصَرَت كرامَةُ الإنسان بانتصار المسيح الذي غلبَ الخطيئةَ والموتَ بالقيامَة، وأَعادَ إليهِ رجاءَ الحياةِ الأبديّة. إنَّنا بِصِفَتِنَا أبناءَ الله، بواسطة سرِّ العماد المقدّس، لَنا قيمَةٌ ووَزنٌ في عَيْنَي الرَّبّ. لذلك أَحَبَّنا الرَّبّ فَعَتَقَنا، وبالتالي وجبَ عَلَينا في مسيرةِ حَياتنا أنْ نَحيا فيما هو لله، أي بكرامةِ الأبناء الذين يَحْيَونَ بالله ولله.

من المهمّ جداً أنْ ندركَ أَنَّ كرامةَ الإنسان تشمل أيضاً الناحيَّة العاطفيّة والجنسيّةِ فيه. إنَّ الحياةَ الجنسيَّة هي أكثرُ من خاصّةٍ للجنس البشريّ، إنّها جزءٌ منّا ومن تركيبةِ شَخصنا. فهي تُعطينا القدرةَ على إقامة العلاقات بالآخرين، وعلى أنْ نعطيهم ذواتَنا بالحُبِّ. إنَّها الواسطةُ المهمّة التي تجعلنا نشترك في حبِّ وخَلقِ الله. ويدعو الله في الزواج الرجلَ والمرأة إلى الإتِّحاد الكامل، الحصريّ، والدائم، الاتِّحاد الذي لا تَنفَصِمُ عُراه، فَيَصيران جسداً واحداً. وهذا الاتِّحاد هو الرابطُ الخاصّ الذي يجعلنا شركاءَ الله في خَلْقِه، وَيُثمِرُ هذا الحُبُّ حَياةً بَشَرِيَّة للعالَم.

في حالِ إساءَةِ استعمال الحياة الجنسيَّة وتحويرها عن أهدافها، تنكشف الأنانيَّة ويَظهَرُ الضعفُ البشريُّ أحياناً بِطَريقَةٍ مُخزِيَة وَمُخيفَة. فالحياةُ الجنسيّة هبَةٌ من الله وليسَت أُلعوبَةً أو وسيلةَ لَهْو. إنّها عَطِيَّة يجب أن تُحتَرَم لِتَقودَ إلى غايتها الخاصّة: الحُبّ والأُلفة والشركة الشخصيَّة مع الآخَر، وما سوى ذلك فهو خطيئة

وواقعٌ مُدَمِّر. لذلك فَإنَّ الزنى والفِسْق والدعارة والاغتصاب والتحرُّش الجنسيَّ على أنواعه، كلّها تُشَكِّل الوجهَ المعاصر للرِقّ والعُبودِيَّة. وتُعَبِّرُ كلّ هذه المظاهر الإباحيَّة عن المظهرِ الساقِط والضَعيف لِطَبيعتنا البشرية. فالكرامة الإنسانيّة تُجرَحُ في صَميمِهَا لا بل تُنسَفُ بِالخَطيئة. فالخَطيئةُ تَخلَعُ عَنّا إنسانيَّتَنا. وبتعبير آخَر فَإنَّ الخطيئةَ تُفَرِّقُ واحدُنا عن الآخَر وَتَفصِلُنَا عن الله. إنَّها إسرافٌ وَتَعَدٍّ على الحُرِّيَة ونَقصٌ في الحُبّ. هذا هو الفرق بين الخطيئةِ والفَضيلَة: فالخطيئة تَفصِلُنا عن الله، بينما الفضيلة تُقَرِّبُنَا منه. وبِقَدرِ ما نَنمو في الفَضيلَة نَتَشَبَّهُ أَكثَرَ فَأكثر بالله وننمو بالنقاوة والقداسَة.

وفي هذا الصدد نتوقَّف ولو قليلاً، على فضيلة العفَّة: "قَلباً نَقيّاً أُخلُق فِيَّ يا أَلله" (مزمور12/50). إنَّ فَضيلَةَ العفّة هي القُوَّة التي تَجعَل الاندماجَ وَالانسجامَ ناجِحَين في وَحدَةِ الإنسان بينَ كِيانِه الجَسَديّ والروحيّ. هي تَدعوه إلى التَمالُكِ والاعتدال في مَشاعِرِه وَأَحاسيسِه وَالاحتفاظِ بالوَظيفَةِ الجِنسيّةِ ضمن أهدافها وحدودها الشريفة. إنَّها تساعد الإنسانَ على أنْ ينظرَ إلى أخيه الإنسان لا كسلعةٍ أو موضوع شهوة أو لذّةٍ ومتعة "***لاَ*** تَشْتَهِ ***امْرَأَةَ قَرِيبِكَ***، ***وَلاَ*** عَبْدَهُ، ***وَلاَ*** أَمَتَهُ" (خروج17/20، راجع أيضاً متى 28/5)، بل أنْ ينظرَ إليه على حقيقته وكرامته. إنَّ فَضيلَةَ العفَّةِ تَسمَحُ بانشِراحِ السَعادَة وَنُمُوّها لا بِمَنعِهَا. إنَّها تَعبيرُ الحُبّ. لَقَد قالَ القديس يوحنا–بولس الثاني في كتابِه الذي يحمل العنوان: "الحبُّ والمسؤوليّة": "إنَّ نَقيضَ الحُبِّ هُوَ استِغلالُهُ".

بقلم الأب سالم ساكا